الفصل الثاني عشر
في النبـــــات[1]

قال الشيخ: «وهذا أول ما يتكون عن هذه الأسطقسات، فإذا تركبت الأسطقسات تركيبًا أقرب إلى الاعتدال، يحدث النبات ويشارك الحيوانات في قوى التغذية والتوليد وله نفس نباتية، هي مبدأ استبقاء الشخص بالغذاء وتنميته به، واستبقاء النوع بتوليد مثل ذلك الشخص».

التفسير: اعلم: ان الأسطقسات الأربعة إذا اختلطت وامتزجت كان لاختلاطها وامتزاجها مراتب ثلاثة:

فأولها: مرتبة المعدنيات. وإليه الإشارة بقول «الشيخ» في صفة المعدنيات: «وهذه أول ما يتكون عن هذه الأسطقسات».

وثانيها: مرتبة النبات. وذلك لأن الأسطقسات إذا تركبت تركيبًا أقرب إلى الاعتدال من التركيب الذي حصل في المعدنيات، حدث النبات.

وهذا بناء على أنه كل ما كان الاعتدال في المركبات أكثر، كان استعداده لقبول القوى الشريفة الفاضلة أولى. وفيه بحث سيأتي في أول فصل الحيوان.

---

(١) بالفتح وتخفيف الموحدة اسم بمعنى النابت لا مصدر، وينقسم إلى شجر وهو ما له ساق وإلى نجم وهو ما لا ساق له كما في شرح المنهاج. وعرّفه الحكماء بأنّه مركّب تام ذو النّمو غير متحقّق الحسّ والحركة الإرادية فالمركّب جنس والتام فصل عن المركّب الغير التام كالشهب والنيازك وغيرهما من كائنات الجوّ، وذو النّمو فصل عن المعادن. والقيد الأخير فصل عن الحيوان. وقيد غير المتحقّق ولدفع ما قيل إنّ للنخلة إحساسا حيث يشاهد ميل الأنثى منها إلى ذكر مخصوص وإن كانت الريح إلى خلاف تلك الجهة، وكذا يشاهد ميل عروقها إلى الجانب الذي فيه الماء وانحرافها وصعودها إلى الجدار المجاور لها، لدفع ما قيل إنّ ذلك يوجد في كلّ أنواع النبات. ولهذا بالغ بعض قدماء الحكماء حتى أثبت له إدراك الكلّيات لتلك المشاهدة وهذا ظاهر البطلان.

وبالجملة فقد اختلفوا: فقيل هو حي لأنّ الحيوة صفة هي مبدأ التغذية والتنمية. وقيل لا إذ الحيوة صفة هي مبدأ الحسّ والحركة. ومنهم من ادّعى تحقّق الحسّ والحركة فيه مستندا بالأمارات الظّنية. ومنهم من بالغ في اتصافه بإدراك الكليات. ثم كلّ من قيدي الحسّ والحركة الإرادية غني عن الآخر، وفائدة ذكرهما على ما مرّ في لفظ الحيوان.

وأما قوله: «ويشارك النبات الحيوان في قوى التغذية والتوليد» فالأمر فيه ظاهر، وذلك لأن النباتات والحيوانات متشاركتان في الاغتذاء والنمو والتوليد.

وأما قوله: «ولها نفس نباتية هي مبدأ استبقاء الشخص بالغذاء وتنميته به واستبقاء النوع بتوليد مثل ذلك الشخص» فاعلم: أن النبات والحيوان يشتركان في حصول هذه الأمور الثلاثة، وهو الاغتذاء، والنمو، وتوليد المثل.

ثم من الناس من يقول: لا معنى للنفس النباتية إلا حصول هذه القوى الثلاث. ومنهم من يقول: بل النفس النباتية صورة موجودة في جسم النبات، تتفرع عليه هذه القوى الثلاث. وقول «الشيخ» ولها نفس نباتية هي مبدأ استبقاء الشخص بالغذاء وتنميته واستبقاء النوع بتوليد مثل الشخص» يحتمل الوجهين.

قال الشيخ: «ولتلك النفس قوة غاذية من شأنها أن تحيل جسمًا شبيهًا بجسم ما، هي فيه بالقوة، إلى أن تكون شبهًا بالفعل، لشدة بدل ما يتحلل، وقوة نامية وهي التي من شأنها أن تستعمل الغذاء في أقطار المغتذى يزيدها طولا وعرضًا وعمقًا إلى أن تبلغ به تمام النشوء، على نسبة طبيعته وقوة مولدة تولد جزءًا من الجسم الذي هو فيه، يصلح أن يكون عنه جسم آخر بالعدد، مثله بالنوع».

التفسير: وهذا الفصل مشتمل على مسائل:

المسألة الأولى

إن قوله: «ولتلك النفس قوة غاذية وقوة نامية وقوة مولدة» صريح في أن النفس النباتية ليست عبارة عن مجموع هذه الثلاث ولقائل أن يقول: لم لا يجوز أن يقال: لا معنى للنفس النباتية الا حصول هذه القوى الثلاث فقط؟ وما الدليل على أن ههنا شيئًا آخر مغايرًا لهذه القوى الثلاث يكون مبدأ لها؟ فإن الدعوة من غير الدليل، لا تليق بأهل التحقيق.

المسألة الثانية

كلام «الشيخ» ههنا وفى جميع كتبه، صريح في أن القوة الغاذية والنامية والمولدة قوى ثلاث متغايرة بالماهية. ولقائل أن يقول: لم لا يجوز أن يقال: الكل قوة واحدة الا أنها في

أول الأمر تورد الغذاء على البدن وحينئذ تكون تلك القوة غاذية، ثم إذا صرفت تلك القوة عن هذا الفعل، فحينئذ تزيد في جوهر العضو في الجوانب الثلاثة، فتكون تلك القوة بحسب هذا الفعل نامية، فإذا صرفت عن هذا الفعل، فحينئذ يفضل جزءاً من جوهر المغتذى، يمكن أن يتولد عنه مثله، فتكون تلك القوة بعينها بحسب هذا الفعل مولدة؟

فالحاصل أن يقال: هذه القوة واحدة في ذاتها، إلا أن فعلها الأول هو التغذية، وفعلها الثاني هو التنمية، وفعلها الثالث هو التوليد، فلا جرم حصل لها بحسب كل واحد من هذه الأفعال اسم خاص.

وليس لهم أن يقولوا: الواحد لا يصدر عنه الا الواحد. وذلك لأن هذه القاعدة ممنوعة. وبتقدير صحتها فهي غير نافعة في هذا الموضع.

وذلك لأن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد بحسب الآلة الواحدة والوقت الواحد وبحسب المادة الواحدة. فأما بحسب الآلات المختلفة والمواد المختلفة فلا نزاع في أنه يجوز أن يصدر عن الواحد أكثر من الواحد.

وههنا الآلات مختلفة والمواد مختلفة، فلا جرم لا يمتنع أن يصدر عن القوة الواحدة هذه الأفعال المختلفة.

المسألة الثالثة: في كيفية التغذية والتنمية

أما القول في كيفية التغذية والتنمية فمشهور، وأما القول في التوليد ففيه صعوبة. وذلك لأن القوة المولدة قوة لا شعور لها ولا اختيار ولا تأثير لها، الا بالإيجاب الذاتي. وهذه المادة منها يتولد بدن الحيوان، إما أن تكون مادة متشابهة الأجزاء في الطبيعة والخاصة. وإما ألا تكون كذلك.

فإن كان الأول فالقوة الطبيعية الموجبة بالذات إذا كانت حالة في مادة متشابهة الأجزاء في الحقيقة، وجب أن يكون الأثر أثرًا متشابهًا وهو الكرة، فكان يجب أن يكون شكل بدن الحيوان على شكل الكرة هذا خلف.

وإن كان الثاني فحينئذ تكون المادة التي منها تولد بدن الحيوان مادة مركبة من أجزاء مختلفة الطبيعة ولا بد وأن يكون كل واحد من تلك الأجزاء بسيطًا في طبيعته، والا لزم أن يحصل في ذلك الجسم أجزاء غير متناهية بالفعل. وذلك محال. وإذا كان كل واحد من تلك الأجزاء بسيطًا كانت القوة المولدة القائمة به قوة قائمة بمادة بسيطة، فوجب أن

يكون شكل كل واحد من تلك الأجزاء هو الكرة، فيلزم أن يكون الحيوان كرات مضمومة بعضها إلى البعض. هذا خلف.

ولما كان القول بإثبات القوة المولدة المصورة مفضيا إلى هذين القسمين الباطلين، وجب أن يكون القول به باطلا، وأن يجزم العاقل بأن خالق الحيوان ومصور أعضائه هو الله تعالى العالم القدير الحكيم.

ولنكتف بهذا القدر من المباحث في هذا الباب، فإن الاستقصاء فيه مذكور في كتاب «الملخص».

obeikandl.com